فى الحب والمرأة

للأستاذ ابراهيم عبد القادر المازنى

أنا — كما لا يعرف القارئ وإن كان لاشك لبيباً — أكره أن أحب أو أن أحَب . ولهذا النفور من الحب أسباب شتى ، منها أنه لا يد لى فى الأمر ، ولا سلطان لى عليه ، والمرء يصاب بالحب كما يصاب بالزكام — بكرهه وعلى الرغم منه — ولو خيّر لاختار السلامة وآثر النجاة ، ومن ذا الذى يطيب له أن يتوعك ؟ والحب حين يغمر النفس يذهلها عن لذته وحلاوته ، ويشغلها بالوجيب والقلق والخوف والرغبة والغيرة ، ولهذا كان أمتع مافيه ذكراه — أى بعد أن تفتر الحرارة وتسكن النفس ويزول الاضطراب والقلق — أو تنتفى دواعيهما بفتور الرغبة — وقد يكون البحر الجائش العباب رائعا ولكن ركوبه لا يحلو ، واعتسافه لا يؤمن ، والنفس مثله . وقد يسمو بها اضطرام الحب فيها إلى الجلال ، ولكن الاحاطة بما تضطرب به والغوص عليه لا يتسنيان إلا بعد الهدوء ؛ وقد يلهم المرء شيئاً وهو هائج ، ولكن النظرة المباركة هى التى تدور بها العين فى أنحاء النفس بعد أن تعود اليها سكينتها وصفوها ويتيسر الوصول إلى أغوارها والنفاذ إلى زواياها والتغلغل فى مراديها .

ومن الأسباب المزهدة أنى رجل عادل منصف ، أو دع الانصاف وقل إن الله خلق لى فى وجهى عينين ، فما خيرها إذا أنا لم أنظر بهما ؟ ؟ والمرأة مستبدة ، ومن استبدادها أنها تغضب وتثور وتسوّد عيشك اذا نظرت إلى سواها . وعبث أن تحاول أن تفهمها أن الأغضاء عن كل هذا الجمال الذى فى الناس ، قلة عقل ، وقصر نظر — بل عمى — ؛ وماذا تصنع العينان إذا لم تبصرا ؟ وأى عمل آخر لهما هناك ؟ وكون المرأة التى يبتلى الانسان بحبها جميلة ليس معناه أن النساء غيرها دميمات ؛ وحبك إياها لا ينبغى أن يتقاضاك مقت النساء الأخريات وتنقصهن ؛ والاعجاب بهن لا يعد ثلباً لحبيبتك ، وفى وسعها هى أيضاً — إذا شاءت وكان هذا مما تستطيع — أن تعجب مثلك بهن . والرجل الذى يفقده الحب القدرة على الاعجاب بالجمال فى صوره المختلفة يكون فاسد الذوق ، ولو عقلت المرأة لكان هذا كافياً لتشكيكها فى رأيه فيها

ويزهدنى فى الحب أيضاً أنى مناظر العشاق مضحكة ، وأحوالهم سخيفة ، ومبالغاتهم شديدة ، ودعاواهم عريضة ، وعمى قلوبهم وأبصارهم تام عن كل ما يحيط بهم . وأى عاشق لم يقطع ألف وعد بالوفاء المستحيل ؟ بل أى محب لم ينس طربوشه مرة ، أو لم يلبس طربوشين واحدا فوق الآخر (ومع ذلك تراه لذهوله يدور باحثاً عن طربوشة لظنه أن رأسه عار !) أو لم يبد للناس فى الطريق أو الترام ملتاث العقل مخبولا ، يضحك ويقطب بلا سبب ظاهر ، ويشير بأصابعه أو يلوح بيده ، أو يكلم نفسه ؟ والأرق ؟ لا أدرى لماذا لا ينام العشّاق ملء جفونهم كما ينام عبادُ الله الآخرون ؟ ولكن الذى أدريه أن النوم المزعج قلما يؤاتيهم أو يسعفهم بسكينته ، وتالله إن العاشق لمسكين ! لا نوم الليلة يا صاحبى لأنك حين ذهبت الى بيت حبيبتك رأيتها مطلةً من النافذة وناظرةً الى جهة غير التى تعرف أنك آتٍ منها ! فهل كانت يا ترى تنتظر سواك ؟ وعليك أن تذرع أرض الغرفة مائة ألف مرة هذه الليلة وتقطع خمسمائة فرسخ — جيئة وذهوبا — لأنك وأنت معها جعلت ذراعك حولها وهممت بضمها وتقبيلها فجنحت الى الدلال ونفرت من العناق ، وكانت تبتسم ، ولكنها قالت « من فضلك ! » من فضلك ؟ ، وهل بيننا « من فضلك ؟ » . هذا كلام يقال للأغراب ، وتكلف فى التعبير لا يكون بين المحبين ! ويظل طول الليل يدب على رؤوس النيام تحته . وفى ليلة يسير على وجهه فى الشوارع كالمتشردين ، ويحدث نفسه بالانتحار ، ويجتاز جسر اسماعيل ، وعينه الى الماء الذى يتدافع بين قواعده ، وقد يسأم التدخين فيلقى بعلبة السجاير فى الماء ويغرقها فيه بدلا منه وفداء له ، وبعد خمس دقائق يشترى غيرها . ولا يزال يتمشى حتى يرتاب فى أمره الشرطة ، ويرى منهم ما يرد اليه بعض ما عزب من عقله ، فيرجع إلى البيت مضعضعاً مهدوداً . . . إلى آخره ، إلى آخره

ثم إن الحب إذعانٌ ، ومن أحب امرأة فقد أسلم أمره — إلى حد ما — لأهواء لا ضابط لها ولا كابح ، ولا تمييز فيها بين الممكن والمتعذر ، أو اللائق وغير اللائق ؛ وقد يطير الحب عقل الرجل — بل هو يفعل ذلك على التحقيق — ولكنه لا يستطيع أن يغير أسلوب تفكيره ولا أن يجعله كأسلوب المرأة فى تفكيرها . وعسيرٌ أن يظل الحب قادرا على إخفاء الفوارق بين أسلوبى

الرجل والمرأة فى التفكير . وهب وقدتَه تبقى زمناً طويلا ـ وهو ما أشك فيه ولا أومن به ـ فان توالى اصطدام العقليتين خليق أن ينبّه الى هـذه الفوارق وأن يزعج الرجل ويحيّره ، وقد يفضى به الى السآمة

والمرأة التى ترى نفسها محبوبة تتوهم أن الرجل أباحها ظهره فهى تركبه وتركضه كيف شاءت والى حيث ينزو برأسها أن تذهب ، ولا تبالى ما يصيبه من الارهاق والجهد والاعياء والملل ، ولا يخطر لها أن كده على هذا النحو ولجاجتها فى ذلك خليقان أن يخمدا وقدة الحب

والدلال ، ماذا تقول فيه ؟ إنه مصيبة كبيرة وبلاء عظيم ، ولـكن المرأة تحسبه وقود الحب ، فلا سبيل إلى شىء إلا بعذاب غليظ من هذا الدلال الثقيل ، إذ كانت المرأة تسيء الظن بقيمة الاستجابة السريعة ، ولا تؤمن إلا بقول القائل — قاتله الله كائناً من كان ، فقد نسيت من هو — : « وَحَبُّ شىء إلى الانسان ما منعا »

قلت مرة لامرأة وقمت بينها وبين حبيبها نبوة من جراء دلالها وإبائها عليه قبلة اشتهاها : « ياستى أنت تحبينه ، وهو يحبك — أليس كذلك ؟ »

فألقت إلىّ نظرة خبيثة ، فهززت رأسى وقلت : « نعم أو لا ؟ أيهما ؟ قولى بلسانك »

فقالت : « لـكأنى فى مدرسة ! »

قلت : « ومن الذى غشك وأوهمك أنك استغنيت عنها ؟ ؟ إنك لم تشبى عن الطوق إلى الآن ، ومازلت إلى هذه الساعة بنتاً صغيرة جاهلة ، أجدر بك أن تخرجى إلى الشارع ، فتلعبى فيه بالحبل ... »

فلم يسؤها منى هذا الطعن لأنها كانت تعرف عطفى عليها ، وحبى لخيرها ، فأعدتُ عليها السؤال ، فقالت : « نعم »

فقلت : « أشهد ألا إلـٰه إلا الله ! وقد اشتهى منك قبلة ، فهل كنت تأنسين من نفسك استعدادا للاجابة ورغبة فيها ؟ »

فضحكت وقالت : « هذا اشبه بالتحقيق . . . . . شىء جميل والله ! »

قلت : « هو تحقيق . . . فأجيبى »

فصاحت : « ولماذا لم يقبلنى ؟ ماذا منعه ؟ »

فصحت بدورى : « إيه ؟ ماذا تقولين ؟ »

قالت : « أقول إن روحى كانت على شفتى . . . . وكنت أتلهف على قبلته ، ولـكنه لم يفعل وذهب يتكلم ... سخيف ! »

قلت : « ليس هو وحده السخيف »

فرفعت وجهها إلىّ ، وزوت ما بين عينيها ، فقلت : « أنا أيضاً مثله . . . . . فقد كنت أحسبه مؤدباً ، وأعده مهذباً ، فاذا به مغفل ! »

فضحكت ... وهكذا المرأة أبداً ... ومن هذا الذى يجرؤ أن يزعم أنه يعرفها معرفتها ؟ يفعل الرجل الشىء يطلب به رضاها ، فاذا هى ساخطة ضجرة ؛ ويتقى الشىء يخشى أن يغضبها بفعله ، فاذا هى تلومه وتؤنبه وتعد ذلك من ذنوبه ؛ وتختصر الطريق وتمشى إلى غايتك مباشرة ، فتراها تؤثر اللف والمحاورة ، فتروح تدور فتجدها قد تغير مزاجها ، واختلفت رغبتها وانقلبت تؤمن بأن الخط المستقيم أقرب ما بين نقطتين ؛ وتهدى اليها تحفة تتعب فى انتقائها ، وتغرم فى سبيلها نصف دخلك ، فتقول : « هلا استشرتنى قبل أن تشتريها ؟ » ؛ وتستشيرها فى مرة أخرى فتقول : « لو فاجأتنى بالهدية لـكان ذلك أحلى وأوقع » فأنت معها أبدا على كف عفريت سكران

وعقول الرجال فى رؤوسهم ، أما عقل المرأة فقد يكون فى حذائها ـ ولـكنه على التحقيق ـ ليس فى رأسها . وضائع ، ضائع ، من يجادلها بمنطق الرجال ، أو يكلمها كلام العقل ، فما عرفتُ ذلك يجدى معها . ولو أن رجـلا أثنى على عقل امرأة بكتاب فى ثلاثين جزءاً لما بلغ من نفسها ما هو خليق أن يبلغ بكلمة ثناء مفردة على جمالها — ولو كذبا — أو نظرة اعجاب واحدة الى حذائها وإن كان أضخم من الباخرة نورماندى ، أو مسحة بكفه ـ فى حنو ، ولو متكلفا ـ على شـعرها وإن كان كضوء القمر

ولست أذم المرأة ، وكيف أجرؤ ، وهى زينة الحياة وسر سحرها ؟ ولـكنى أقول إنها مخلوق آخر ، غير الرجل ، وهو قول ليس فيه جديد ، ولا شك أن الرجل يبدو للمرأة ـ كما تبدو هى له ـ مستغرب الأطوار شاذا فى أسلوب تفـكيره ، وطريقة تناوله للأمور

ابراهيم عبد القادر المازنى